تقديم

بقلم: فضيلة الأستاذ عمر فتح الله كوش

نحن نرى أن الماضي والحاضر والمستقبل أبعاد مختلفة لحقيقة واحدة. وعندما نشعر بأبعاد الزمن هذه ونحس بمذاقها، نعيش فيها معاً، ونتذوق رحيقها في آن واحد. ولا سيما الماضي، فإننا حينما نرى آثارا تذكرنا بجذورنا الروحية وهويتنا الأصيلة تتحرك لدينا الخواطر والتداعيات ويزداد إحساسنا بالماضي عمقا، فتمتلئ أشرعة حاضرنا برياح العزم والجهد والثبات، فنبحر نحو آفاق المستقبل الباسم بالأمل.

أجل، ما أن نعثر على بعض الآثار العزيزة على قلوبنا من الماضي الجميل حتى نقبل عليها فرحين، ونتناولها كما نتناول باقة من الورد، نشم رائحتها الزكية، ونملأ أعيننا بجمالها، ونقبلها بإجلال عميق، ونجعلها تاج رؤوسنا؛ فإذا بها تثير في نفوسنا خواطر من الماضي البعيد، فتتجلى صفحات التاريخ أمام أعيننا ناصعة، ونرنو إلى مشاهدها الجميلة حالمين، ونشعر كأننا نعيش الأيام التي كانت تلك الآثار فيها ملء العين والقلب، وموضع التقدير والتبجيل. ويبلغ بنا الإحساس بتلك الأشياء مبلغا تتراءى لنا فيه وكأنها أحياء تتحرك في سكون عميق وتتنفس في صمت. فنقرأ في ملامحها معاني عجيبة ودلالات خفية فنحبها... نعم نحبها وكأنها فلذة أكبادنا وجزء من أرواحنا. وكلما رأتنا مقبلين عليها بصدق وإخلاص أزاحت لنا الحجاب وفتحت لنا الأبواب وكشفت لنا عن السبل المؤدية إلى أروع التصورات والرؤى وأجمل الخيالات والأحلام، ودعتنا إلى عصورها ضيوفا أعزاء مكرمين. فنلتقي في مكان واحد، نعانقها معانقة الصديق لصديقه والحبيب لحبيبه، وتعانقنا بدفء غامر، ويمتلئ المكان بمعان سامية عذبة، فنسرع إلى ارتشافها كأنها ماء الحياة، ونتنفسها كأنها أنفاس الربيع.

أجل، كلما أقبلنا عليها بقلوبنا، شعرنا وكأن رائحة شذية كالمسك والعنبر تسري في مسارب نفوسنا، وهي نفس الرائحة التي ينتشر عبقها الأصيل في المكان عندما تُفتَح صناديق جداتنا القديمة قدم الدهر. ويخيل إلينا عندئذ أننا في عالم عجيب من السحر، وأن تلك الآثار التاريخية تتحدث إلينا بأفصح ما يكون البيان، وتهمس إلى قلوبنا أسمى المعاني، دون أن تستخدم حرفا أو كلمة أو صوتا يستخدمه بنو الإنسان، فإذا بنا في نشوة غامرة لا نريد مفارقتها أو براحها.

وليست قيمة هذه الأشياء فيما تؤديه من منفعة عملية في الواقع، كما هو الحال بالنسبة لبعض الأشياء التي توزن قيمتها بميزان المنفعة الآنية؛ إنما قيمتها في المعاني العميقة التي تذكّر بها وتحببها في طياتها وتشير إليها وتدعو لها. ومن ثم عندما ننظر إليها بعيوننا، ونتحسسها بأيدينا، نشاهد عليها إشارات من معتقداتنا السامية وخطوطا من ماضينا المجيد، فتنبسط أساريرنا، وتنشرح قلوبنا، ونحطم قيود زماننا الضيق محلقين في أجواء فسيحة وأمداء رحبة فوق الزمان.

كلما نظرنا إلى تلك الآثار التاريخية التي أهلّت في ناحية من نواحي بيوتنا، أو ملأت أرجاء متاحفنا، تراءت لنا الآمال التي حملتها النفوس سابقا، والرؤى التي اختبأت وراء حجب الماضي، وإذا بنا نشاهد الأيدي وهي تلامس الآثار العزيزة بلطف، والأنوف وهي تشم رائحتها بعمق، وإذا بنا نراهم يتحولون بيننا أو تتحول بينهم في مكان واحد، فتخفق قلوبنا لهذا الإحساس.

إن هذه الآثار التاريخية مرآة صافية تحدثنا عن معتقدات أجدادنا النقية وإيمانهم العميق وثقافتهم المتسامحة وقيمهم العالية. فنقرأ في وجوه هذه الذكريات العزيزة أخلاق أسلافنا وأحلامهم وآمالهم؛ هؤلاء الرجال الذين نسكب اليوم دموعا غزيرة لغيابهم، ولا نجد ما نسرّي به عن همومنا سوى ذكرياتهم.

فما بالك إن كان بين هذه الذكريات "البردة النبوية الشريفة" التي تذكرنا بفخر الإنسانية عليه الصلاة والسلام، وبكعب بن زهير بن أبي سلمى ﷺ صاحب قصيدة "بانت سعاد"، أو تذكرنا بسلاطين المسلمين الذين احتفظوا بها في أجمل مكان من قصورهم طوال قرون وقرون بإجلال كبير وتقدير عظيم حتى حطت رحالها في ديارنا؛ أو كان بينها اللواء الشريف "العقاب" الذي لازم رسول الله ﷺ طوال رسالته المباركة؛ أو كان بينها شعيرات من لحيته ﷺ المباركة والتي تَنافَس الصحابة الكرام فيما بينهم لكي لا يضيعوا شعرة واحدة منها، وقصاصات شعره المبارك التي تناقلتها الأيدي قرنا بعد قرن منذ عصر السعادة الأغر إلى يومنا هذا، وتناولتها القلوب جيلا بعد جيل كأنها باقات ورد حبيبة، وبـــجّلتها أيما تبجيل؛ أو كان بينها السيف المبارك الذي كان صاحب العمامة والقضيب ﷺ يتقلده في جميع الغزوات ولكن دون أن يؤذي أحدا أو يتلطخ بدم أحد؛ أو كان بينها رباعية السعادة التي فارقت أخواتها من اللآلئ المنتظمة في الفم المبارك كعقد الجمان، جراء ملامسة حصاة طائشة انطلقت حيًّا في ملامسة الياقوت أثناء إحدى الحروب؛ أو كان بينها العصا العزيزة التي كان يحملها صاحب العصا ﷺ؛ أو كان بينها القوس المبارك الذي ما رمى به عليه الصلاة والسلام سهما نحو إنسان في حياته السنية إلا مرة واحدة، وذلك ناحية رجل أتى بغية قتله ﷺ، فاستهدف القوسُ الشريف منه غير مقتل؛ أو كان بينها نقش "القدم الشريفة" الذي تسابق سلاطين الإسلام وملوكه ليتوّجوا به رؤوسهم...

وبالقرب من هذه الذكريات الميمونة كلها قدر إبراهيم ﷺ، وعصا موسى ﷺ، وعمامة يوسف ﷺ، والسيف المهيب الذي صنعه داوود ﷺ بنفسه، والسيوف المباركة العائدة إلى بعض الصحابة الكرام والعشرة المبشرين بالجنة، والمصحف الشريف الذي كان يتلوه سيدنا عثمان ذو النورين أثناء استشهاده...

إضافة إلى بردة الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وقلنسوة أويس القرني ﷺ، وتاج الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومَحافظ الحجر الأسود الذهبية والفضية، وميازيب الكعبة الذهبية... أجل، ما بالك إن كان بينها أمثال هذه الودائع المباركة والأمانات المقدسة التي لا يعادل مُلك العالم كله قيمةَ واحدة منها.

أجل، كل وديعة من هذه الودائع تثير في النفس ذكريات وخواطر كثيرة، إذ تحمل معاني جليلة، وقدرا عظيما من الرفعة والسمو. فمن بحث لواحدة منها عن نظير، أو نقّب لها في البلاد عن مثيل فلن يجد لها نظيرا ولا مثيلا. فأنى له أن يقدّر ثمنها أو قيمتها مجتمعة.

وهناك أمر آخر لا يمكن أن نجد له مثيلا، وهو هذه العناية الخاصة التي أبداها أبناء أمتنا الأوفياء سلاطينَ ووزراء وعلماء وشعبا من اليوم الأول الذي شرّفت فيه أراضينا الطيبة. ففي اليوم الأول، ما أن حطت الأمانات الشريفة رحالها في إسطنبول حتى خصص لها السلطان أجمل مكان في قصره، وأحلّها إجلالا منقطع النظير حيث سمّى الجناح الذي نزلت فيه ضيفة كريمة "دائرة بردة السعادة"، وملأ أركان الدائرة بنور قرآني فياض وحيوية إيمانية سامية من خلال تلاوة أفضل الحفاظ للقرآن الكريم بأصواتهم الندية... ومن ثم قدم نموذجا حيا باهرا في حب النبي والأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصحبه الكرام.

ومنذ ذلك اليوم أصبح هذا المكان الطاهر، أي دائرة بردة السعادة أو جناح الأمانات المقدسة، ملجأ يأوي إليه الميمون بحب رسول الله ﷺ باحثين عن الدفء والسكينة، متنفسين فيه أنفاس الربيع، مرتشفين ماء الحياة. نسأل المولى عز وجل أن يذكي هذا الحب في القلوب فتستمر صلة المحبين بهذه الدائرة المباركة إلى الأبد.

ولا يصح أن ننظر إلى الأمانات المباركة والزخارف الموجودة في هذا الجناح الميمون كأنها أشياء قديمة مزينة عادية لا تحمل أي معنى، أبدا... إذ أن الجناح برمته، بزخارفه التي تزين الجدران ومفتتياته الموضوعة هنا وهناك بعناية، يبدو للناظر الذواق كحديقة فيحاء صُمّمت تصميما فنيا دقيقا، ونُثرت عليها أزهار بديعة الجمال. لقد صممت الخطوط والأشكال الفنية بتناسب عجيب مع روح المكان إلى درجة تُشعرك وكأن كل شيء هنا خُطّط له مسبقا تخطيطا شاملا من قبل يد عُلوية. كل شيء هنا في موضعه المناسب، وهناك تناغم بين المكان والأشياء، بحيث لن تجد النشوة التي تحس بها والرائحة التي تشمها هنا في متاحف قديمة أخرى. إذ ما أن تلج الجناح المبارك حتى تشعر بأنك دخلت خلوة خاصة في عالم غير عالمنا، وأجواء غير أجوائنا، وجاورتَ ربانيين مقربين إلى الله سبحانه، فغرقت في سحر المكان وما أردت مغادرته أبدا. أجل، في هذه الدائرة التي تشع نورا، كلما أطل الإنسان إلى وجوه تلك الآثار التي لا تقدر بثمن، رأى كأن الزمان الذي يتدفق كالنهر في الخارج قد انكمش وتقلص وأُدخل في فانوس قديم، ووُضع في زاوية من زوايا الحجرة المباركة؛ وحينئذ ينجذب الإنسان إلى سحر المكان ويتشبع بعذوبة روحانيته، ويذوب في بحر من الجمال الوردي السامي.

إن الإنسان الذي يوفّق إلى استنشاق رائحة الجدران، واستشعار الروح الذي تَلبّسه المكان بحواس قلبه، يسمع أجمل الألحان الشعرية، ويتسامى على طبيعته وكأنه غارق في عالم من الأحلام؛ وتتفتح في جنان قلبه أزهار من المشاعر المتنوعة التي تسحر الناظر بألوانها وتسكره بعبقها الطاهر الشذي؛ فيشعر بنشوة عميقة وقد سرت في كيانه كله، وتنطبع البسمة على شفتيه، ويمتلئ صدره بأنفاس الفرح المقدس، ويقول "لا شك أن هذا المكان صمّمته أيدي الملاكة، وهنا يكمن سر هذه الجاذبية وهذا السحر".

إن الفارس الذي يشد رحاله إلى الخواطر التي تثيرها الأمانات المباركة في إطار هذه المعاني يرفرف نحو آفاق عجيبة، ويشعر بأنه يعيش في زمان آخر غير زمانه، وفي حياة أخرى غير حياته، وفي

مكان آخر غير هذا المكان. ويبدو له كأن زمانه الضيق ومكانه المحدود قد انفتقا عن زمان ومكان آخر. نعم هنا لا ينفع إلا الصمت... إذ السالك ما أن يرمي بنفسه في بحار الصمت، ويرفع أشرعته لرياح الخواطر والذكريات حتى يجد نفسه مبحرا في آفاق شاسعة من الشعر الجميل، مصغيا إلى الدويّ الصامت لأحداث ووقائع لا يسمع صداها إلا هو. ويتمثل كل أثر من الآثار المباركة وكأنه شخصية تاريخية ملؤها الدفء والحياة. إن كل شيء حوله في هدوئه العميق صديق مخلص قد فتح ذراعيه ليحتضنه بحب وحنان. ويخيل إليه لحظة أنه لو خطا خطوة صغيرة أخرى سيدلف إلى الزمن الذي وجدت فيه. وإلى أن يوقظه أحد من هذه الرؤيا الجميلة يبقى مستغرقا وسط هذه التجليات السامية والمشاهدات الرفيعة.

إن أبناء أمتنا الأوفياء قد عرفوا الأمانات المقدسة بهذه الأبعاد والمعاني الكريمة، وفهموها بهذا الفهم، فوفّوها حقها من التقدير والإجلال.

وما أن لاحت وديعة من تلك الودائع في آفاقنا حتى هبّت مكنون حبنا لدينا الحنيف فأسرعنا إلى عالمه المضيء مرة بعد أخرى عبر القرون. ولقد كنا في كل نظرة إليها نجدد صلتنا بهؤلاء العظماء الذين تشير إليهم، ونحس بجلالهم في أعماق قلوبنا من جديد. وحتى في الفترات التي أصيبت فيها هويتنا الروحية بجروح، وتزعزعت مشاعر التبجيل للقيم الدينية... حتى في تلك الفترات لم تتأثر مكانة الأمانات المباركة في قلوبنا وظلت موضع احترام الجميع وتقديرهم دائما.

هذا، وبين أيدينا كتاب يتيح لنا فرصة الولوج إلى عالم الأمانات المباركة متى شئنا؛ والتحليق في أمجاد ماضينا العظيم مع كل صفحة نقلبها من صفحاته؛ وترتيب الرحلات إلى عصور أسلافنا الذين تدفقوا كأنهار من الأنوار في سبيل نشر النور والضياء في كل أرجاء الأرض؛ ألا وهو كتاب "آثار الرسول في جناح الأمانات المقدسة في متحف قصر طوب قابي بإسطنبول". ونحن على يقين بأنه في كل فقرة من فقراته أو صورة من صوره سيتحدث إلى القلوب المتفتحة بكلام عجيب، ويهمس إلى النفوس الموصولة بجذورها الروحية بألحان وترنيمات ساحرة. وليت شعري ما هي الإيحاءات البليغة التي سيلقيها في أعماق أعماقنا...

أتقدم بجزيل الشكر إلى السيد حلمي أيدين الذي أهدى هذه الموسوعة الثمينة إلى مكتبتنا الثقافية؛ مع إيماني العميق بأنها ستلعب دورا مهما في أن نحس بنبضات قلب ماضينا المجيد، ونضع البرنامج تلو البرنامج والخطة بعد الخطة مع النشاط الحثيث لاستثمار وقتنا الحاضر، وننطلق نحو مستقبل زاهر ينبض بالأمل. كما سيكون لها أثر كبير في خروجنا من أزماتنا المعقدة كلما أصغينا إلى نغمات الماضي الصامتة، وتكون لنا رفيقا وفيا في طريقنا الطويلة الملتوية، وبردا وسلاما علينا في صحرائنا الموحشة. وأهنئ دار النيل للطباعة والنشر التي بذلت كل ما في وسعها لإعداد الكتاب للنشر، وكذلك السادة الأفاضل طلحة أوغورلو إيل، وأحمد دوغرو، وأنكين جيفتجي، ومراد عربجي وإخوة أعزاء آخرين قدموا جهودا كبيرة في إخراجه وإيصاله إلى القارئ الكريم، ومن الله التوفيق.

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله على جزيل عطائه، وأشكره شكر المعترف بمنته وآلائه، وأصلي وأسلم على صفوة أنبيائه، وآله وصحبه وأحبابه.

وبعد، فإن محبة الرسول ﷺ ملأت قلوب الصحابة الكرام، واستولت على مشاعرهم، وجرت منهم مجرى الدم في العروق؛ فبذلوا الجهد من أجل دعوته، وفدوه بأموالهم وأرواحهم؛ وإذا دخل عليهم تمثّلوا له قياماً، وإذا جلس تحلّقوا حوله لحاماً، لا يفارقونه إلا لماماً، ولا يحولون نظرهم عنه أبدًا. ينصتون إلى أقواله ويتابعون كل أفعاله كي لا يفوتهم منه أدنى شيء، فضبطوا عنه أحكام دينهم وطبقوها في كل أعمالهم وشؤونهم. ومن شدة حبهم له حرصوا غاية الحرص على أن يتبركوا بقربه ويتنافسوا على امتلاك ما كان من حاجياته، كلوائه الشريف وسلاحه الذي تقلده، وكسوته التي ارتداها، ورباعيته التي كسرت في معركة أحد، وشعر رأسه المبارك ولحيته الشريفة، وعصاه التي كان يتوكأ عليها، وقدحه الذي شرب به الماء واللبن، حتى نعله الذي كان يلبسه... نعم، احتفظوا بتلك الأشياء كلها تبرُّكا وذكرى طيبة منه لهم وللأجيال التي تأتي على مر الدهور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإذا أمعنا النظر في كتب الحديث الشريف نجد أنه ﷺ أذن لهم بهذا الصنيع، ولم يعترض على أي أحد منهم، وأنه صمت عندما تزاحم القوم على قطرات وَضُوئه، وعلى قطرات عرقه العطر الذي كان يتصبب من بدنه الطاهر، وحتى بردته الشريفة التي أهداها إلى كعب بن زهير ﷺ، والبردة الأخرى التي أرسلها مع بعض أصحابه إلى أويس القرني ﷺ والمحفوظة اليوم في مسجد "الخرقة الشريفة" بإسطنبول، وقصاصات شعره عليه الصلاة والسلام أثناء حجة الوداع... أجل، كل هذه الذكريات الجميلة حرص الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين على حفظها أشد الحرص.

كما تم الحفاظ على آثار أخرى للرسول ﷺ والأنبياء العظام عليهم السلام، إضافة الى مقتنيات للصحابة الكرام، وأخرى لعظماء الإسلام تداولتها الأيدي جيلاً بعد جيل؛ وذكريات أخرى ادخرها الخلفاء

والأمراء في مختلف العصور، واعتبروها رمزا للخلافة والحكم؛ وذكريات تم وقفها للمساجد وتكايا الطرق الصوفية والمؤسسات الخيرية لتكون وسيلة تخفيف نار الشوق الملتهبة في قلوب العاشقين لرسول الله ﷺ.

وكتابنا هذا يتميز عن كتاب "الأمانات المقدسة" للسيد تحسين أوز الذي صدر عام ١٩٥٣ والذي احتوى على صور فوتوغرافية باللون الأسود والأبيض، بأنه أشمل وأضخم كتاب يصدر في هذا الموضوع منذ ذلك الوقت حتى اليوم. كما أن معظم الصور التي توجد في هذا الكتاب سيراها القارئ هنا لأول مرة، إذ أنه لم يحظ كتاب آخر بعرضها إلى اليوم. وقد تم أثناء إعداد الكتاب تتبع أكثر من ٦٠٠ أثر من الأمانات المباركة وقراءة بطاقاتها الواحدة بعد الأخرى للوصول إلى المعلومات السليمة عنها. وجدير بالذكر أن الكتاب يتميز بعرضه بعض الآثار النبوية لأول مرة مثل النعلين السعيدين للنبي الأعظم ﷺ والقدح الشريف، وهو ما يدل على الكمية الهائلة التي يتضمنها متحف قصر طوب قابي من الأمانات المباركة والذكريات الجميلة.

نرجو لهذا الكتاب الذي نوقن أنه سيملأ فراغا كبيرا في موضوعه أن يكون وسيلة خير للأمة الإسلامية وأن ينال القبول والرضى، وهي رغبة طالما تمنيتها. كما أغتنم الفرصة فأضرع إلى الله تعالى أن يتغمد برحمته ورضوانه جميع أرواح الذين بذلوا جهودهم في حفظ الأمانات المباركة على مدى الأزمان سواء في جناح بردة السعادة في قصر طوب قابي أو في أماكن أخرى.

ولا أنسى أن أقدم جزيل شكري لكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب، ومنهم الصديقان العزيزان الدكتور سليمان برك، وشامل قوجور، والكاتب الباحث طلحة أوغورلو إيل. كما أشكر جميع المسؤولين في دار قيناق، وبالأخص السيدين الكريمين أنكين حفتجي ومراد عربجي اللذين سهرا على تصميم الكتاب وإخراجه بصورة فنية رائعة. كما أشكر السيدة فيلز جاغمان مديرة متحف قصر طوب قابي، والسيد بهادير طشقين الذي قام بعملية التصوير بصورة دقيقة وزملائي الآخرين في متحف قصر طوب قابي.

وأخص بالذكر والشكر الجزيل زميلي وصديقي الكاتب والباحث السيد أحمد دوغرو الذي قام بتحرير الكتاب باذلا كل معلوماته التاريخية والفنية بسخاء وتواضع، إضافة إلى السيد محمد فاتح جان صاحب مجلة التاريخ والفكر ورئيس تحريرها الذي أتحفني ببحوثه ومساعداته الكريمة. وأدين بالشكر إلى والدي وأستاذي السيد عبد الرحمن أيدين ووالدتي السيدة ملحات أيدين، وزوجتي وزميلتي السيدة إقبال أيدين، وأولادي نازليهان وأوغوزهان لتشجيعهم المعنوي ودعمهم المتواصل.

وإذ أختم كلامي أتمنى أن يملأ كتابنا هذا فراغا في تاريخ الفن الإسلامي ويسهم في تسليط الأضواء على جوانب مهمة في ماضي الأمة الإسلامية ويساعد الباحثين في مجال الفن الإسلامي على تطوير بحوثهم في هذا المضمار. والله ولي التوفيق.

حلمي أيدين